آفاق المعرفة



لماذا يدير النقد الأدبي المعاصر ظهره لنظرية البنيوية؟

بقلم: دونالد هيز
ترجمة: د. منير سويداني *

في الحديث عن الأدب والفن بشكل عام، يمكن القول بأنه ليس ثمة واقع أدبي مستقل عن الخطاب النقدي والدراسة النقدية، فالتغيرات النظرية - الثورية- التي يمكننا القيام بها هي التغيرات التي نحتاجها لتطوير أشكال الواقع التي تهمنا، ولكن الأمر ليس كذلك، فالنظريات الأدبية، هي محاولات توضح الكيفية التي تعمل بها الأعمال والنصوص الأدبية كالقصائد والمسرحيات والقصص والروايات.. إلخ، بما تمتلكه من بنى ألسنية معينة،

* باحث سوري

- العمل الفني: الفنان مطيع علي



تترك آثاراً نفسية على المتلقي، وعلاقة ذلك بالمجتمع والتاريخ، وهناك رأي يفيد بأن النظرية الأدبية هي بمثابة شكل أدبي عن الأدب لا مجموعة من التفسيرات التي يكمن إخضاعها للاختبار التجريبي، وقد شكلت بعض النظريات الحديثة نوعاً من الميتافيزيقا البديلة، التي لا توضح شيئاً، وبما يشبه القراءة الفلسفية للهيغلية أو الماركسية، أو التحليل النفسي وغير ذلك، وستقتصر دراستنا هنا على النظر في واحدة من أهم النظريات الحديثة، والتي كان لها أثر كبير في الأدب واللغة، وامتدت لتشمل الفلسفة وعلوم الإنسان، وهي البنيوية.

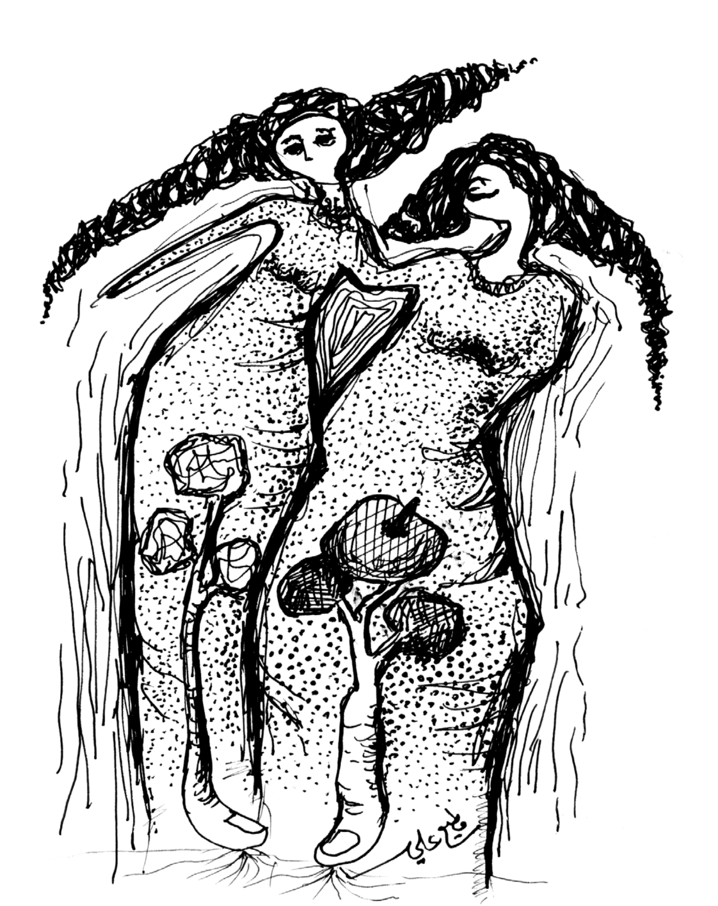
إغراء البنيوية

شكلت البنيوية منبع إغراء كبير للعديد من الكتاب والمفكرين خلال عقود عديدة من القرن العشرين المنصرم، وامتد تأثيرها إلى مجالات أخرى غير الأدب والفلسفة، حيث لاقت اهتماماً واسعاً بين جمهور عريض من المهتمين بالأدب، كما لاقت في الوقت ذاته معارضة ورفضاً واسعين لدى آخرين، وقد وجد منهم في البنيوية كشفاً أصيلاً يمكنه أن يعيد توجيه مناهج وطرق البحث في شتى حقول الدراسة توجيهاً مفيداً، فيما وجد فيه آخرون تهمة يلوحون بها أمام خصومهم وأعدائهم، ومهما يكن فإن البنيوية ليست مذهباً أو عقيدة، بل هي منهج، أو طريقة معينة، يتناول فيها المهتم أو الباحث المعطيات التي تنتمي إلى حقل ما من حقول المعرفة وفق معايير محددة توصف بأنها عقلانية، لكن البنيوية واجهت نقداً واسعاً من قبل فلاسفة وباحثين كثر، كما تعرضت إلى إعادة قراءة ومساءلة وتفكيك .

قصور النموذج اللغوي

بدأت البنيوية بوصفها استراتيجية بحث عقلاني في أعمال «سوسور جاكوبسون» و«ستروس» وسواهم في أوائل عشرينات القرن العشرين المنصرم، وهذا يعني أن البنيوية هي بصورة أساسية محاولة تطبيق نموذج اللغة البنيوي على العلوم الإنسانية عموماً والأدب بشكل خاص، ولكن هذه الاستراتيجية انطوت على عيب أساسي، ونشأ ما دعاه «ليونارد جاكسون» بـ«البؤس المنطقي» في نموذج اللغة الأساسي وذلك في كتابه «بؤس البنيوية- الأدب والنظرية البنيوية». ويتجسد هذا العيب في عدم كفاية هذه الاستراتيجية وقصورها في تفسير وقائع اللغة ذاتها، فما بالك بوقائع الأدب أو المجتمع، مما يعني أن نموذج اللغة البنيوي من المستحيل عليه أن يفي بالغرض في ميادين الأنثربولوجيا والتحليل النفسي وسواهما من الميادين، حيث يقوم هذا النموذج على مقولة الدوال التي

يمكن وصفها بالتشويش، كما يذهب إلى ذلك «جاكسون» والأهم من هذا هو «تصور هذا النموذج بوصفه نظاماً من التقابلات المحضة دون أية حدود إيجابية ثابتة»، ووفقه لن يكون لدال معين أي معنى إلا عند تقابله مع دول أخرى.



هذا النقد الموجه للبنيوية يلتقي في ما ذهب إليه الناقد المعروف «كريستوفر نوريس»، حيث يرى في كتابه «نظرية لا نقدية» أن المشكلة الأساسية لكل ما يمرر تحت اسم «النظرية النقدية» من حركات هو قبولها اللا نقدي لمقولات «سوسور» الأساسية، وتمريرها كمفاهيم يمكن نقلها ببساطة من حقل اللغويات البنيوية النسقية إلى فروع أخرى كالنظرية الأدبية، والنقد الثقافي، والتاريخانية وأشكال التمثيل الإعلامي، وقد استمر هذا القبول اللا نقدي لطروح «سوسور» مع التيار ما بعد البنيوي، وخصوصاً تيار البراغماتية النصية الجديد. وفي هذا الصدد يعتبر «جاكسون» أن الكثير من أطروحات البنيوية وما بعد البنيويات تتسم باللاعقلانية في نزوعها، وينبغي تفسيرها بوصفها حركة احتجاج ضد الرأسمالية والعلم والميتافيزيقا الغربية والبطريركية وكل شيء آخر لا يروق لمنظريها، لا بوصفها نظريات جدية ورصينة

في الأدب والثقافة. إن ما يسوقه «جاكسون» هنا هو مجال خلاف وجدل كبيرين وفضلاً عن محاولته البرهنة على أن النموذج البنيوي لا يستطيع أن يقدم على مستوى التركيب أو النحو تعليلاً بين الجمل المبنية للمعلوم والجمل المبنية للمجهول، وللعلاقة بين صيغ الاستفهامات والإجابات الموافقة لها، وهو ما يسميه «القصور المنطقي» للبنيوية، فإن جاكسون يتتبع تطور الحركة البنيوية وأفولها من موقع الضد، مقترحاً أن النموذج التوليدي- التحويلي للغة، أو نموذج آخر أكثر ملاءمة للمجتمع أو العقل، قد يكون مفيداً حقاً للنظرية الأدبية والعلوم الإنسانية.

وإذا نظرنا إلى التعقيد الفلسفي للبنيوية لوجدنا أن سببه استنادها إلى نيتشه وهيدغر وديريدا وسوسور وماركس، وهو ما جعلها بمثابة إيديولوجيا لجماعة من المثقفين على طول عقود من الزمن وبعدها، تطورت في خمسينيات وستينيات القرن العشرين من خلال إعادة التفكير بمقولات «فرويد» لتستمر في كونها إيديولوجيا متجددة من المثقفين خلال مرحلة أخرى من الزمن. والسؤال الذي يطرح نفسه في هذا الصدد هو : ما الذي كان بإمكان البنيوية أن تقدمه بوصفها موقفاً فلسفياً؟ .. ربما تلك النظرة التي ترى المجتمع محدداً بمجموعة من التمثيلات الذهنية اللاواعية التي يتقاسمها أفراد ذلك المجتمع المعني، وهذا يفترض في جانب رئيس من جوانبه أن لنظام التمثيلات الذهنية أولوية منطقية، وربما أفضلية على كل من المجتمع والأفراد، لأن الذوات الفردية تصبح وفق هذا المنطق متشكلة من إدراج الفرد في مثل هذا النظام، والمجتمع بدوره متشكل من خلال الطريقة التي يدير بها مثل هذا النظام الذهني السلوك الاجتماعي الذي لولا ذلك لكان بلا معنى، إذا ليس ثمة عالم اجتماعي موضوعي خارج تمثيلاته الذهنية، وليس ثمة ذات حرة إلا وهي مشكلة من خلال هذه التمثيلات، وهكذا نعود مرة أخرى إلى مثالية كانطية جديدة.

أطوار البنيوية

لقد مرت البنيوية بعدة أطوار، شأنها في ذلك شأن أغلب النظريات والاتجاهات الحديثة، وهناك من يرى أن البنيوية، ومنهم «جاكسون» مرت بأربعة أطوار أساسية، من الإشارة إلى عدم دقة الفاصل الزمني بينها، وقد كان الطور الأول، وهو الأطول نسبياً، طوراً من تاريخ الألسنية، حيث قدمت فيه البنيوية أطر النقاش النظري في الألسنية، أما الطور الثاني فقد كان محاولة طموحة لتطبيق المبادئ البنيوية على كامل حقل الألسنية وعلى الأدب، فيما كان الطور الثالث

محاولة لتطبيق مبــادئ البنيوية على حقول أخــرى، وبصورة أدق كان محاولة لإقامة علم السيميولوجيا الذي افترض وجوده «سوسور» لكــن على أساس الألسنيــة المعقدة والرفيعة كمــا عرفتها أربعينيــات وخمسينيات القرن العشرين المنصــرم، وأخيراً فإن الطور الرابع هو انهيار البنيوية والذي يطلق عليه «ما بعد البنيوية» وفيه جر التخلي عن النية الأساسية في تقديم أنظمة واسعة المدى في مجال العلوم الإنسانية، وقد بلغ التغيير فيه حداً يصل إلى انهيــار البنيوية، بل وموتهــا. وخلال متابعة صعــود البنيوية وازدهارهــا، يميز جاكسون مــا بين «سوسور» الحقيقــي وموقعه في علم الألسنية وبين «سوســور» المعدل في الفلسفة المثاليــة الألسنية التي جــيرت «سوسور» من أجل دعمهــا ومساندتها. فقد قدم «سوسور» عناصر هامــة للألسنية نهضت على مفاهيم اللسان والكلام والدراسة التزامنية والدراسة الزمنية ومحــور التداعي في اللغة وغير ذلك مــن المفاهيم التي تستحــق المراجعة وإعادة القراءة، وكان أمــل «جاكوبسون» و«تيتانوف» أن يتــم التوســع في مفهوم اللســان، بحيث يطال الأدب، كما ساهمت «مدرسة براغ» في تطوير النموذج البنيــوي للغة في عشرينيات وثلاثينيــات القــرن العشرين، ثــم أضحت البنيوية فرنسية عندما التحق الأنثروبولوجي «كلود ليفــي ستروس» بمحاضــرات «رومان جاكوبسون» الألسنية في الأربعينيات، وأسهم «رون بــارت» في تأسيــس السيميولوجيــا الفرنسية، فضلاً عــن كونه أهم ناقد بنيوي مع أنه تخلى عنها في آخر حياته، وتأثر «جاك لاكان» بالمصطلحــات السوسوريــة وأدخلها التحليــل النفســي في الخمسينيــات، بينما شهدت الستينيات ظهــور شخصيات شهيرة وصفت بأنها بنيوية، مثل «ألتوسير» و«فوكو». بيد أن تألق المشروع البنيوي سرعان ما تهاوى بسرعة حين أطلقت السهام عليه من الداخل ومن الخــارج، وجاء «جاك ديريــدا» ليسهم في ذلــك بشكل فعال. لكــن البنيوية دلت في مواجهة مــع الفلسفة الظاهراتية والوجودية في فرنســة، حــين ظهر «بــارت» و«ألتوسير» و«لاكان» و«كريستيفــا» و«ديريــدا» ليقدموا برنامج عمل ثورياً جديــداً، يهدف إلى إنتاج ذات إنسانيــة ثورية عن طريق ثورة الكلمات، حتــى صارت قمــة الفضيلــة في تلك الفترة أن تكون منظراً أدبيــاً، وحلت فلسفة مثالية للغة في قلــب النظرية الجديــدة، ويدعوها «جاكسون» مثالية ألسنيــة أو خطابية، يقوم زعمهــا الأساسي على نفي وجــود أي واقع مستقــل عن اللغــة، فالواقع ألسنــي بأكمله ومفاهيمنا عنه تحددهــا لغتنا، كونها نتاجاً لهــذه اللغة، وقد فعلت هــذه المفاهيم فعلها

في القرن العشرين دون أي حس نقدي، وربما عملت هذه الفلسفة على إحياء مزاعم فلسفة القرن التاسع عشر، فالزعم بأن العالم بناء عقلي أو مثالي استبدال بفكرة «العقل» وفكرة «المثل» استبدلت بفكرة «اللغة» وفكرة «الخطاب» وتجاهلت هذه الفلسفة بشكل متعمد ما أنجزه القواعديون التوليديون، وبالأخص ما أنجزه «نعوم تشومسكي» وغيره من العلماء وفلاسفة اللغة.

هدم التمركز

إن ما ميز المنظر الأدبي الراديكالي هو افتقار الاهتمام بالمسائل العادية في الحياة، على الرغم من أن منظري الأدب كتبوا كثيراً عن اللغة، وانصرف اهتمامهم إلى كل ما هو غرائبي أو مختلف أو صوفي أو فلسفي، أي كل ما يعزز اهتمامهم بتقديم رؤية للعالم تقوم على المعارضة، لكن هذا الأمر الذي يستغربه ويستهجنه «جاكسون» كان تعبيراً عن العالم الآخر، عالم الرفض لما وصلت إليه الرأسمالية وعالم التقنية، حيث تشيأ الإنسان وفقد كل إحساس بالجدوى، ووصل إلى حالة من فقدان المعنى.

وكان من الممكن - بعد الانقشاع التاريخي للوهم عام ١٩٦٨- التوجه إلى عالم اللغة لتدمير بناها بدلاً من تدمير بنى الدولة العتية، فهناك لن يضربك أحد على رأسك إن فعلت ذلك حسب تعبير «تيري إيغلتون» وعليه فرت جموع الحركة الطالبية من الشوارع مجفلة، ومضت تحت الأرض باتجاه اللغة والخطاب، وأصبح أعداؤها أنظمة الاعتقاد المتماسكة، وبرز «ديريدا» بحسه الشمولي ليوجه سهام تفكيكه ونقده لكل نظام تمركزي ولكل إحالات الميتافيزيقيا. وأصبح كل فكر تمركزي «نظامي» أو كلي موضع شبهة بوصفه فكراً إرهابياً، ولم تعد القراءة لدى «بارت» معرفة بل لعباً إيروسياً، فالكتابة أو القراءة المماثلة للكتابة هي آخر مقاطعة غير مستعمرة يمكن للفكر أن يلعب فيها.

غير أن ما هو مثير في نقد «جاكسون» للبنيوية هو أحكام القيمة التي يزعم أنه لا يستعجل في إصدارها، وهو محق في أن الدور الذي تلعبه اللغة في الطريقة التي نبني فيها المفاهيم المعقدة هو دور هام، وأن اللغة ليست نظرية للواقع أو صورة مصغرة للثقافة، ولا هي صيغة للكينونة، لكنها ليست في أحسن الأحوال مجرد أداة للتفكير فقط، فاللغة تملك نظاماً معيناً كتب فيه العديد من علماء وفلاسفة اللغة. وأعتقد أن وصف النظرية الأدبية المعاصرة بأنها جمع بين صوفية نصية وآراء جذرية يرتكز على ميتافيزيقيا مضادة، وفيه شيء من حكم مستعجل فليس كل من يهاجم الميتافيزيقا يبني ميتافيزيقا مضادة

جديدة، و«الصوفية النصية» التي يستقيها «جاكسون» من أعمال «بارت» الأخيرة ومن أطروحات «ديريدا» و«بول دي مان»- على الرغم من الفارق الكبير بين الاثنين- تستند إلى عبارات ومفاهيم عامة، مثل التناص والاستراتيجيات النصية وانفلات النص، وسواها.

ويمكن إرجاع صعوبة القراءة في النظرية المعاصرة ليس إلى لغة النص أو موضوعه بل إلى سبب جوهري ينبع من طبيعة النصية ذاتها، وعليه يمكن أن نرد مقولة أن النصوص تخلق عوالم ولا تكتفي بالإشارة إليها انطلاقاً من أن ليس ثمة عالم واقعي خارج النص مستقل عنه، إلى مثالية ألسنية أو خطابية محض، وعليه فإن النظرية النصية تقدم نموذجاً لميتافيزيقا مستقبلية، وهذه الميتافيزيقا المدهشة مؤسسة على أعمال مناهضين للميتافيزيقا، وهذا يحتاج إلى مزيد من البحث والتدقيق.

إن ما ذهب إليه «جاكسون» و«ديريدا» وسواهما في مراجعتهم النقدية للبنيوية وما بعدها، هو سعي يستحق الاهتمام والمساءلة، لكن الاتجاهات التي ظهرت في النظرية الأدبية مرجعها يرتكز على جملة من القضايا والمسائل المتنوعة، الأدبية والاجتماعية والسياسية والتاريخية، ولا يمكن الاكتفاء بالنموذج، بنيوياً كان أم بعد بنيوي أم سوى ذلك، والزعم بصلاحيته في كل مكان وزمان، بل التقدم والاستمرار في البناء وإعادة البناء، وعليه ماذا يجدي نفعاً انتظار «نموذج للتفكير بالعالم تفكيراً عقلانياً» كما يأمل «جاكسون» أليس هذا نوعاً من انتظار ظهور أو عودة ظهور «هيغل» جديد؟

☆ ☆ ☆